

## الفن الإسلامي.. حقيقته وجوهره



يخطئ كثير من الباحثين عندما يختزلون الفن في الغناء والموسيقى والرقص، تبعاً لتصورات فاسدة تشيع بين الجهلة العوام، ومن يستقون معارفهم من وسائل الإعلام، لأنَّ الفن أوسع مجالاً وأسمى هدفاً، وأبعد مدى في أغوار النفس البشرية وأعظم شأنًا في الحضارة الإنسانية عامة والحضارة الإسلامية خاصة من أن يختزل في الغناء والموسيقى والرقص.

وهذا التصور الضيق هو الذي جعل دكتوراً في الشريعة الإسلامية يستبشر بصلوة فنان مغنٍ في بيت من بيوت الله، وهو ما سماه هذا الدكتور بـعوده الفنان إلى المحراب؛ لأنَّ استبشر الدكتور بعوده الفنان إلى المحراب، يحمل إدانة صريحة للفن، وحكماً قاسياً على أهله بمخالفاة الشريعة والبعد عن الله، وهو ما لا نقره أو نرضاه؛ لأنَّه من المستحبيل أن يستبشر بصلة مؤمن تقي في بيت من بيوت الله، وفي العشر الأواخر من رمضان – تحديداً – التي تشرئب فيها أنفاس كل المسلمين إلى رحمة الله ومعرفته، وإنما！ يستغرب أن يصلى مع الجماعة من يتصرف بنقىض الصلاة معها؛ كالكافر والمحارب ومن على شاكلتهم؛ لأنَّ الصفة تطرد نقىصها، والنقىصان لا يجتمعان، وهذا عند الأستاذ: الفن والمحافظة على الصلاة في الجماعة وهذا فهم غريب للفن مغاير لحقيقة ومبرهن لجوهره، وهو ما دفعني إلى كتابة هذا المقال.

فما هي حقيقة الفن؟ وما هو جوهره؟ وما موقف الإسلام منه؟

## تعريف الفن:

قد يكون من الصعب على الباحث أن يقدم تعريفاً دقيقاً للفن؛ لسعة مجاله، وسرعة تطور حركته من جهة، ولتعدد المدارس الفنية من جهة أخرى. ولكن لابد من محاولة إعطاء تعريف يجلب حقيقة الفن ويقرب فهمه إلى ذهن القارئ.

الفن هو: تعبير عن الجمال يمتاز بالتنظيم والتوازن المحكمين، وهذا التعبير يمثل استجابة وتجسيداً من الفنان لما ينفعل به انفعالاً وجداً نياً عميقاً، فالفن على رأي الفيلسوف جود: هو النافذة التي يمكن أن نطل منها على حقيقة الجمال وهذا ليس تعريفاً لحقيقة الفن، وإنما هو بيان لوظيفته. وهو على رأي محمد قطب: محاولة البشر لتصوير حقائق الوجود وانعكاسها في نفوسهم في صورة موجبة ميلة، ولكن الفن أوسع مجالاً من تعريف محمد قطب؛ لأنّه لا يقتصر على تصوير حقائق الوجود فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تجسيد انفعالات الفنان نفسه، والتعبير عن مشاعره وتصوراته وأحاسيسه، سواء أكانت صدى لحقائق الوجود، أم تعبيراً عن رؤى خيالية تجول في ذهن الفنان، وليس لها أي وجود في الخارج وأما الفنان فقد عرّفه محمد قطب بأنّه شخص موهوب ذو حساسية خاصة تستطيع أن تلتقط الإيقاعات الخفية التي لا يدركها الناس العاديون، ذو قدرة تعبيرية خاصة على تحويل هذه الإيقاعات إلى لون من الأداء الجميل، يثير في النفس الانفعال ويحرك فيها حاسة الجمال. وما دامت هذه حقيقة الفن وذاك جوهره؛ فإنّه من المستحيل أن يحاربه الإسلام أو يعاديه؛ لأنّ الإسلام دين الفطرة السلمية التي تنجدب إلى الكون متناغمة معه، وإلى الوجود متناسبة به، مستبطنة كل معاني الجمال، جامعة لجميع أشاته في الكون والنفس، مؤلفة من ذلك نسقاً متجانساً، يتوااءم مع الوجود الذي أبدعه الباري جل وعلا. فالإسلام لا يحارب الفن ولا يعادي الجمال؛ لأنّه – الإسلام – الدين الحق الذي أنزله خالق الكون ومصوروه،! وقد بلغ الإسلام المنهى في الكمال، وتجاوز المدى في الحسن، وبلغ نهاية الإعجاز في الجمال، شكلاً وجوهاً وقد أشاد الإسلام بالجمال ونوه به في مواضع متعددة من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، فورد في الحديث النبوي الشريف: إنَّ أَجْمَيْلَ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَقَدْ خَلَقَ إِلَّا كُوْنَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا كُوْنَ فِي السَّمَاوَاتِ فَإِنَّمَا تَقْوِيمَهُ فِي أَرْضِهِ فِي سَمَاوَاتِهِ (التين/4)، وبيث في الكون من آيات الجمال الباهرة ما يسيي الألباب ويدهش العقول، قال تعالى: (أَفَلَا يَرَى طُرُونَ إِلَّا إِبْلٌ كَيْفَ خَلَقَهُتْ وَإِلَّا السَّمَاءَ كَيْفَ رُفِعَتْ) (الغاشية/17-18) ودعا الناس إلى تأمل في جمال السماء، قال تعالى: (إِنَّمَا زَيْنَدَ السَّمَاءَ الدُّرْزِيَّةَ وَزَيْنَةَ الْكَوَاكِبِ) (الصافات/6) ولفت أنظار أبصاربني آدم وبصائرهم، قال تعالى: (وَلَقَدْ جَعَلَنَّهَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيْنَدَاهَا لِلْذَّاطِرِينَ) (الحجر/16).

وَلَكُمْ إِلَى جَمَالِ الْأَنْعَامِ الَّتِي يَرَوْنَهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّاً، وَيَتَمْتَعُونَ بِهَا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حَرَبَنَ تُرْبَحُونَ وَحَرَبَنَ تَسْرَحُونَ) (النحل/6)

وغرس حب الجمال في أعماق الإنسانية حتى إنّه لينجذب إلى كل المصورات الجميلة والمناظر البدعة، ويشعر وكأنّه يعرفها منذ زمن بعيد. وهذا الانجذاب إلى الجمال هو الذي يمنح المرأة الاستعداد لإدراك الجمال في أسمى صوره وأبعاد معانيه، وهو جمال الله تعالى، وجمال دينه، والاستقامة على هديه.

#### موقف الإسلام من الفن:

إنّ الفن لا يعدو كونه محاولة للتعبير عن هذا الجمال والحسن الذي يتراهى في أرجاء الكون، وينبعث من داخل كل صورة في الوجود، فيبهر الإنسان ويغمر وجوده بالإحساس بوجود وشائج نسب خفية وأواصر تناسب عميقة بينه وبين هذا الجمال إلى حد الرغبة في الالتحام به أو الذوبان فيه، فقد ينسى الإنسان نفسه وهو يتملّى جمالاً أخذاً، يقول سيد قطب - رحمه الله -: ''الدين والفن صنوان في أعماق النفس وقراره الحسّ'', وقد يقال بأنّ هذا الحكم لا يقبل على إطلاقه، وأنّه لابد من تقييده بأنّ الفن الذي يلتقي مع الدين هو: الفن الذي يقوم على التصوير الإيماني للوجود - كما قال محمد قطب - ولكن الصحيح أنّ أي فن لا يصادم العقيدة الإسلامية يمكن أن يلتقي مع الدين في أعماق النفس، كما تلتقي مناظر الطبيعة الجميلة معه.

#### مكانة الفن في الإسلام:

لقد وجد فن إسلامي أصيل شمل مجالات واسعة في الحضارة الإسلامية التي ملأ إشعاعها إرجاء العالم أربعة عشر قرناً، وكان فناً متميزاً في شكله وجوهره، ينبعث من رحاب المسجد، مستلهماً عقيدة الإسلام الصافية، مرتكزاً على رؤية عقدية، تحكم صناعته ابتداء، وترسم مساره العام، وتحدد أهدافه الكبرى، من غير أن تلزم الفنان المسلم بصيغة واحدة للتعبير الفني.

#### الفن الإسلامي والمسجد:

لقد استنتاج الفيلسوف روجيه جارودي أنّ العامل المحرك للفن الإسلامي هو المسجد وفن عمارته، ثم قال مقولته الرائعة: ''إنّ الفنون في الإسلام تفضي إلى المسجد، والمسجد يفضي إلى الصلاة''. وهذا يعني أنّ الفن الإسلامي يجذب الإنسان جذباً إلى الله تعالى، فيتوق إلى عبادته ويستلذ مناجاته؛ رغبة في التخلص من كل عبودية لسواه. إنّ الفنان المسلم لا يكون منه أصيلاً إلا إذا عاش في رحاب المسجد، ووقف بين يدي الله في إختبات وخشوع، في أوقات الصلاة المكتوبة على الأقل، يتأمل أسرار الوجود، وحقيقة الحياة والموت، ويتلذذ بيقاعات لا حد لها، تخاطب العقل والسمع، وتهز القلب والوجدان، وتناجي الروح، وتحث الجسد على التسامي، وفي الصلاة يتتساق جمال الاستقامة مع جلال الخشوع، ويلتازم انتظام

أجسام المؤمنين في الصفوف مع قوة وحدة قلوبهم، وصفاء أرواحهم، عندما تسمو في معارجها إلى الله تعالى، كل مسجدت <sup>هـ</sup> أو ركعت رغبة أو رهبة، أو محبة وتذللًا، أو استمعت إلى القرآن يتلى متدفقاً في أسلوبه الآسر، الذي يفيض حسناً ويسع القلب وسناءً، يرشد الحائر، ويهدى الضال، ويأخذ بيد من يستجيب له إلى سعادة الدنيا، ونعميم الآخرة، فيزداد قلبه صفاء، وروحه طهارة، وحسه رهافة، ونفسه فهما للوجود واستعداداً لتقدير الخير والتخلص من جواذب الأرض.

إنَّ الصلاة في المسجد جديرة بأن تمد الفنان المسلم بطاقة متجددَة، تدفعه للإبداع والابتكار في عمله الفني، يقول روجيه جارودي عن المسلمين الذين يؤدون الصلاة مولين وجههم شطر مكة المكرمة: إنَّ هؤلاء جميعاً مندمجون في دوائر متراكزة في هذا الانجذاب الروحي إلى المركز الذي هو البيت العتيق إنَّ هذا الشعور هو الذي استولى على الفنان المسلم فجعل عمله الفني تجسيداً للأخوة الإسلامية الجامعة لهذا فإنَّ المسجد في الفن الإسلامي يمثل البدء والمنتهى - كما قال الدكتور عماد الدين خليل - ولا غرو في ذلك؛ فهو ركيزة الحضارة الإسلامية، وقلبها النابض بالإيمان والحياة، وقد أدرك هذه الحقيقة جميع من ألفوا عن الفن الإسلامي من الراسخين في العلم، سواء في ذلك المسلم منهم وغير المسلم، فجعلوا المسجد نقطة الارتكاز التي تدور حولها بحوثهم العلمية.

#### الفن وسيلة اتصال بين الناس:

إنَّ الفن وسيلة اتصال بين الناس، يتحقق من خلالها نوع من الاتحاد العاطفي والتناغم الوجداني، بعيداً عن حاجز اللغة والوطن والجنس والدين، كما يرى محمد قطب لأنَّه تعبير بشري عن الإنسانية في أوسع مجالاتها ومفاهيمها. وهذا أمر لا يخفى على من له أدنى ذوق جمالي، فالناس إذا ما نظروا إلى طلعة البدر ليلة تمامه استهواهم جماله، وسحرهم بهاوه، وكذلك إذا تأملوا غروب الشمس وبزوغها فإذا بهم يشعرون بجمال المنظر، مع اختلاف اللغات، وتباعد العادات واختلاف الأديان وتباعد الأوطان، وهذا الأمر ذاته يصدق على قصر الحمراء في الأندلس، أو أي معلم من معالم الفن الإسلامي التي سكب فيها مهندسوها لمسات فنية إسلامية عظيمة، أو أي أثر من الآثار الفنية العالمية الرائعة، إلا أنَّ هذا لا ينفي أنَّ كل فن يستوطن في ثناياه وروحه الخفية رؤية أهله العقدية <sup>هـ</sup> تعالى والإنسان والكون والحياة، وهو ما يتجلّى بشكل صريح في الفن الإسلامي، الذي يقوم على عدة أمور منها:

\* التجرييد الجمالي الخالص، الذي ينأى عن التشخيص، مستلهماً ذلك من العقيدة الإسلامية التي تنزع <sup>هـ</sup> عن التجسيد؛ لأنَّ الله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى/11).

\* عدم التفريق بين الديني والدنيوي، فالفن الإسلامي لا يفرق بين الديني ولا الدنيوي؛ لأنَّ الإسلام منهج كامل للحياة كلها، يقول روم لاندو: وليس من ريب في أنَّ حافزاً لا واعياً نحو دمج السماوات دمجاً

رمزاً في بيت العبادة، هو الذي قاد المسلمين إلى تبني القبة وإلى إتقانها حتى الكمال. فقبة المسجد هنا رغم جمالها الظاهر، وتناسق شكلها، إلا أنّها نداء إلى جميع البرية بأنَّ دين الإسلام يرفض فصل الروح عن الجسد، والسماء عن الأرض، والدين عن الدولة.

الفن ليس تمراً على العقيدة:

إنَّ الفن الإسلامي لم يكن نتاج تمرد على العقيدة الإسلامية - كما يزعم بعض المغرضين - عندما وقفت أمام التعبير الفني ومنعته من التتحقق، مما حدا بالفنان المسلم إلى التمرد على أوامر الإسلام، ومواولة الفن رغم حظر الشريعة للاشتغال به، ولكن من خلال ابتكار فن جديد، فيه شيء من الاستقلالية مرده إلى التمرد على شريعة الإسلام.. هذا كلام ساقط لا قيمة له، وليس لقائله سلطان شرعي ولا دليل تاريخي أو حجة عقلية، أو سند فني، فالحقيقة أنَّ الفنان المسلم لما حرم الإسلام عليه بعض صيغ التعبير الفني - لما فيها من مخالفة للعقيدة الإسلامية والأدب الشرعية- استجاب لأمر الله أولاً، ثم بحث عن صيغ جديدة للتعبير الفني لا تصادم الشريعة، فأبدع فنان إسلامياً يستنير بشرعية الإسلام ويلتزم بعقيدته، له مميزات علمية دقيقة، وخصائص فنية جميلة، يقول روجيه جارودي: إنَّ جمالية الفن الإسلامي لا تعتبر مطلقاً حيلاً للإلتلاف على محترمات القرآن والحديث، بل تعبرها عن رؤيا نابعة من العقيدة الإسلامية. ولا يخفى ما بين التمرد على العقيدة الإسلامية وبين استلهام روحها من بون شاسع.

بعض أنواع الفن الإسلامي:

للفن الإسلامي أشكال كثيرة، وصور عديدة، وقد صدرت موسوعات كبيرة بجميع اللغات الحية حول الفن الإسلامي، وفتحت في جامعة أوتردام الإسلامية بـ هولندا أول كلية متخصصة في الفنون الإسلامية حسب ما جاء في مجلة العالم الإسلامي (سنة 2001م المعاصرة بتاريخ 2001/6/8م /العدد 1700).

العمارة:

لقد جعل الفن الإسلامي من العمارة عالماً يمور بالجمال والحركة، حيث أبدع الفنان المسلم في فن بنائها وشكل تصميمها إبداعاً شارف حد الكمال، وجمال العمارة الإسلامية رغم روعته، وتماشيه مع أدق المعايير الفنية، إلا أنَّه يستلهم من شريعة الإسلام روحه الباطنة، فهو جمال داخلي لا يراه إلا من ولج العمارة، أما من كان خارجه فلا يرى من هذا الجمال إلا ما ظهر؛ فزينة البيت يتمتع بها من أعطي الأذن، وليس كلاماً مباحاً لكل راتع كما أنَّ الإسلام يوجب على المسلمين أن لا يفخر بعضهم على بعض فيوغر صدره، بل يدعوهם ليكونوا سواسية، ظاهراً على الأقل، ثم إنَّ أبواب العمارات الإسلامية ونوافذها تنفتح إلى الداخل وليس على الطرق التي يمر منها الناس؛ تحقيقاً لمعنى الستر، فالبيت ستر لأهله وليس يواري عوراتهم، وهذا لا يتحقق إلا إذا كانت الأبواب والنوافذ تنفتح على الداخل، لا على خارج الخط أما خطوط الكتابة فقد أبدع فيها الفنان المسلم مفجراً منها عوالم ساحرة، تنطلق من الحقيقة التي يعبر عنها

النـمـ، وتمتد لـتـسـتـخـرـ كل طـاقـاتـ أـحـرـفـ هـذـا النـمـ الجـمـالـيـةـ، مـاـ قـدـ يـجـبـ عـنـ النـاطـرـ العـادـيـ حـقـيقـةـ كـوـنـ النـمـ - الـذـيـ تمـ اـخـتـيـارـهـ بـدـقـةـ - لـمـ يـقـصـدـ مـنـهـ مـجـرـدـ الـجمـالـ فـنـيـ فـحـسـ، بلـ إـنـّـهـ يـجـمـعـ بـيـنـ الفـنـ شـكـلـاـ والـعـقـيـدةـ مـضـمـونـاـ، فـهـوـ فـنـ وـرـسـالـةـ.

### فنون إسلامية أخرى:

ولم يقتصر الفن الإسلامي على ما سبق ذكره، بل امتدت يد الفنان المسلم ليحكم سيطرته في ميادين أخرى لها أهمية كبيرة، كفن الزخرفة، وصناعة الخزف، والسجاد، والنقوش، والحفر على الخشب، وقد أولى الفنان المسلم هذه الفنون نصيباً وافراً من عناناته؛ ليجعل منها آيات خالدة تشهد بعصريته، وبعظمته الفن الإسلامي، وتنوعه وثرائه، في إطار وحدة جامعة لهذا الفن، مهما تباعدت الأماكنة واختلفت الأزمنة.

### سر تشابه الفن الإسلامي:

إنّ تشابه الفن الإسلامي معجزة أخرى صنعتها عقيدة الإسلام التي وحدت رؤى جميع الفنانين المسلمين على امتداد أزمان متطللة، وعبر أقاليم متباude، حيث صبغت إنتاجهم بصبغة واحدة، يقول روحيه جارودي: إنّ نظرة - ولو سطحية - على شواهد الفن الإسلامي في العالم تكشف لنا عن أصالتها وجدتها العميقـةـ، وتشعرنا بأنّ ذات التجربة الروحـيةـ تـحـيـاـ فـيـ أيـ مـبـنىـ روـحـيـ، أيـاـ كانـ مـكـانـهـ الجـغـرافـيـ أوـ غـايـتهـ، فـمـنـ الجـامـعـ الـكـبـيرـ فـيـ قـرـطـبـةـ إـلـىـ الجـوـامـعـ الصـغـيرـةـ فـيـ تـلـمـسـانـ وـالـقـرـوـبـينـ وـفـاسـ وـطـولـونـ فـيـ الـقـاهـرـةـ، وـالـجـوـامـعـ الـضـخـمـةـ فـيـ اـسـطـنـبـولـ، وـالـبـصـلـاتـ الـفـرـدوـسـيـةـ فـيـ مـسـاجـدـ أـصـفـهـانـ، أوـ مـنـارـةـ سـاـمـراءـ الـحـلـزـونـيـةـ، وـمـنـ فـصـورـ الـحـمـراءـ فـيـ غـرـنـاطـةـ إـلـىـ قـصـرـ عـلـيـ...ـ تـوـلـدـ لـدـيـ شـعـورـ دـائـمـ بـأـنـ رـجـلاـ وـاحـداـ فـدـ بـنـاـهـاـ جـمـيعـهـاـ، تـلـبـيـةـ لـنـداءـ إـلـهـ وـاحـدـ وـلـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـقـدـرـ هـذـاـ التـشـابـهـ حـقـ قـدـرهـ إـلـاـ مـنـ قـرـأـ قـوـلـ لـانـدـ: لـوـ أـنـ عـشـرـةـ مـصـوـرـيـنـ حـادـقـيـنـ وـقـفـواـ أـمـامـ مـنـظـرـ وـاحـدـ، وـصـورـهـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـ؛ـ فـإـنـ صـورـهـمـ العـشـرـةـ لـنـ تـكـوـنـ بـيـنـهـاـ صـورـتـانـ مـتـشـاـبـهـاتـانـ، وـلـكـنـ لـوـ أـنـ وـاحـداـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـمـصـوـرـيـنـ فـقـطـ صـورـعـشـرـةـ مـنـاظـرـ مـخـتـلـفـةـ عـلـىـ التـتـابـعـ،ـ فـإـنـ صـورـ هـذـهـ الـمـنـاظـرـ العـشـرـةـ سـتـكـوـنـ مـتـشـاـبـهـةـ بـيـدـ أـنـ الفـنـ إـلـاسـلـامـيـ رـغـمـ تـنـوـعـهـ الـعـظـيمـ،ـ إـلـىـ حدـ أـنـّـهـ يـصـعبـ وجودـ تحـفـتينـ مـنـهـ مـتـمـاـنـلـتـيـنـ كـمـاـ يـقـولـ أـحـمـدـ فـكـرـةــ إـلـاـ أـنـّـهـ مـعـ ذـلـكـ يـمـتـازـ بـوـحدـتـهــ.ـ إـنـّـ سـرـ تـشـابـهـ الـفـنـ إـلـاسـلـامـيـ رـغـمـ تـنـوـعـهـ يـرـجـعـ إـلـىـ صـبـغـةـ الـعـقـيـدةـ إـلـاسـلـامـيـةـ الـتـيـ أـشـرـبـاـ كـلـ فـنـانـ مـسـلـمـ فـسـكـبـتـ فـيـ عـقـلـهـ وـوـجـدـاـنـهـ رـؤـيـةـ وـاحـدـةـ لـلـكـونـ وـالـحـيـاةـ،ـ هـيـ ذـاـتـهـ الرـؤـيـةـ الـتـيـ تـنـطـبـعـ فـيـ عـقـولـ وـوـجـدانـ جـمـيعـ الـفـنـانـينـ الـمـسـلـمـيـنـ فـيـ أـيـ زـمـانـ وـأـيـ مـكـانـ؛ـ فـكـانـ نـتـاجـهـمـ إـلـيـدـاعـيـ مـتـشـاـبـهـاـ رـغـمـ تـنـوـعـهـ وـثـرـائـهـ؛ـ لـأـنـّـ شـعـورـاـ وـاحـداـ يـسـيـطـرـ عـلـيـهـمـ جـمـيعـاـ،ـ وـيـوجـهـ فـكـرـهـ لـتـحـقـيقـ الـأـهـدـافـ وـالـغـاـيـاتـ نـفـسـهـاــ.

### واجب الفنان المسلم:

لقد هجر كثير من المسلمين - مع الأسف الشديد - الفن الإسلامي، حتى كادت مظاهره تختفي ومنابعه تجف،

أمام النموذج الغربي الوافد، وهو ما يحتم على الفنان المسلم أن يعود بقوه إلى الفن الإسلامي الأصيل، مستلهماً فلسفة الإسلام، فيستمد منها غاية عمله، ثم ينطلق في معركة البناء الحضاري مستويعاً تراث السابقين ونتائج المعاصرين استيعاباً شاملًا، ليفتح عوالم جديدة يثبت من خلالها عطمة الإسلام وعبقريه الفنان المسلم المعاصر وقدرته على مواكبة عصره، مع تميزه في عطائه وأصالته في إنتاجه الإبداعي؛ ليعود بالفن إلى رحاب الإسلام، ملبياً رغبات المسلم الجمالية والروحية، ومؤسسًا لفن إسلامي أصيل يتناغم مع حاجات العصر، ويتافق مع الفطرة الإنسانية السليمة ويملاً الإحساس والوجودان بمحبة الله.